العرب واليهود من التعايش إلى التصادم

د. إبراهيم التومي ـ كلية الآداب ـ جامعة صبراتة

الملخص:

شكَّل الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين مجالًا للبحث والدرس، اشتغل عليه العديد من باحثي العرب والغرب، في محاولة لملامسة مصادر الصراع وأسبابه. وقد حاول الباحث أن يشارك بهذه الورقة لاستجلاء مصادر التوتر العربي اليهودي، بعد أن كانتِ العلاقات اليهودية العربية عبر مراحل التاريخ موسومة بالتعايش، غير أنَّ بعض الحركات اليهودية ذات البُعد التوسُّعي أسهمت في إشعال فتيل هذا التوتر، بالإضافة إلى أثر التغلغل الاستعماري على هذه العلاقات.

الكلمات المفاتيح: العرب، اليهود، التعايش، التوتر، الصراع.

المقدمة:

بدأ الصراع العربي الإسرائيلي منذ عام 1948 على أرض فلسطين، والتي كانت تحت الانتداب البريطاني سابقاً؛ أي بعد ثلاثين عامًا من إعلان بلفور الذي "تنظر الحكومة البريطانية بموجبه بشكل إيجابي في إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين"، وبينما يكتشف الرأي العام الغربي الإبادة الجماعية النازية ليهود أوروبا، فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة تبنت في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 القرار رقم 181، والذي يقضي بإقامة دولة يهودية على 56٪ من أرض فلسطين ودولة عربية على النسبة المتبقية والبالغة 44٪.

وفي 14 مايو 1948، يوم "إعلان استقلال" إسرائيل، طردت القوات اليهودية بالفعل ما يقرب من أربعمائة ألف فلسطيني من الأراضي المخصصة للدولة اليهودية، واحتلت غالبية مدنها العربية. ما جعل قوات من الدول العربية تدخل فلسطين في 15 مايو 1948. ومن تم اندلعت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، ثم تلتها حروب 1956 و1967، ثم أبرمت اتفاقية السلام الإسرائيلية المصرية عام 1978، واتفاقية السلام الإسرائيلية الأردنية عام 1994، ثم اقتراح السلام العربي عام 2002 والذي رفضته إسرائيل.

وتفيد الكثير من الكتابات التاريخية[1] أنَّ اليهود السفراديين عاشوا جنبًا إلى جنب مع جيرانهم العرب في العديد من البلدان العربية، تربطهم علاقات موسومة بالتعايش وحسن الجوار، لكن ما إن ظهرت دولة إسرائيل حتى توترت العلاقات مع الدول العربية وتفككت، وأصبح التوتر علامة بارزة على العلاقات اليهودية العربية.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة: ما الأسباب التي أسهمت في تفكك هذه العلاقات وفقدان التوازن فيها، ولا سيما أنَّ الجنسين عاشا جنبًا إلى جنب فترات طويلة من التاريخ؟ من كان وراء هذا التفكك واختلاق التوتر بينهما حتى صار فيه السلام شبه مستحيل؟

العلاقات العربية اليهودية:

تُجمع المصادر أنَّ اليهود منذ القديم وجدوا بين القبائل العربية الأمن والسلام، وجادت العروبة على اليهود باللغة، فأجادوها، كما اكتسبوا بعض الخلال العربية ونعموا بالحرية المفقودة أجيالًا، وبالفطرة العربية التي أكسبتهم إياها البيئة والمخالطة والمنافسة.[2] فقد عاش اليهود جنبًا إلى جنب مع العرب عبر فترات تاريخية، منها ما كان قبل الإسلام، ومنها ما كان في عهد الرسول والصحابة، وكذلك زمن الفتح الإسلامي، وهم يتمتعون بكل الحقوق الدينية والاجتماعية التي كفلها لهم الإسلام؛ كما "حظي اليهود - في عصرنا هذا، على مستوى العالم العربي – بأكثر ممَّا حظي به كثيرون من أبناء العرب، بل إنَّهم كانوا يمارسون حرية العمل ضد أصحاب البلاد أنفسهم. فإذا أخذنا مصر مثلًا نجد أنَّه بينما كانت قضية الضابط اليهودي (دريفوس) تهز المجتمع اليهودي في أوروبا، كان الكاتب والمفكر اليهودي يعقوب صنوع (أبو نضارة) يصدر جريدته (التنكيت والتبكيت) مسهمًا في إنهاض الحركة الوطنية عن طريق الصحافة والمسرح".([3])

لقد عاش اليهود مع جيرانهم العرب في حالة تساكن وتعايش كبيرين طوال قرون تاريخية تمتّعوا فيها بحقوق ضمنها لهم الشرع الإسلامي مقابل أداء الجزية في ظل قانون الذمة، ومن تمَّ ربط اليهود صلات وثيقة في المجالات الاجتماعية- الاقتصادية والاجتماعية - الفكرية مع جيرانهم العرب. وتمكن اليهود من العيش في بلاد الإسلام عيشا يسوده التعايش والتسامح في إطار علاقات متينة، وهم يتمتعون باستقلال كامل؛ إداريا وقضائيا تحت قانون الذمة المفروض بمقتضى ديانة أغلبية السكان. وإذا كان

بعض الدارسين، مثل أندريه شوراقي[4] قد اعتبروا وضع الذمة وضعا يشبه وضعية العبيد، فإنَّ البعض منهم، مثل حاييم الزعفراني، اعتبر قانون الذمة قانون تسامح إذا ما قيس بالوضع التعسفي الذي عاشه اليهود في بلاد المسيحيين.

لقد اشترك اليهود والعرب في مظاهر ثقافية، نسجت بينهم علاقات متينة امتدت فترات من الزمن؛ فقد عاش اليهودي والمسلم جنبًا إلى جنب يحملان مظاهر ثقافية مشتركة تجلَّت في سلوكهما اليومي، يقول الزعفراني:" يمكن أن يكون نفس المزار مقصدًا لليهود والمسلمين، وموطنا حوله تتفق آراؤهم، وتتجلَّى فيه مظاهر ثقافتهم المشتركة، بل فيه تتمثل توفيقية دينية قد تدهش الناظر. إنَّهم يهودًا ومسلمين يرجون معًا الشفاعة والحماية من نفس الأولياء والصالحين، ويقومون بنفس التعبد وبنفس الرموز، ويقدمون نفس الصدقات ويتوسلون بنفس الدعوات ونفس الصلوات ويعود كل واحد منهم إلى بيته، بعد أن زار نفس الولي غنيا في خياله بكل الخيرات التي كان يرتقبها من توقف زيارته هاته مزودا على كل حال بمزيد من الإيمان والآمال".[5]

فاليهودي والمسلم متقاربان في التفكير والعادات، بل إنَّهما يلتقيان يوميًا، فيتحاوران ويتجادلان في عدد من الأمور الدنيوية بغض الطرف عن المعتقد؛ فاليهودي يصادق جاره المسلم ويعاديه ويحبه ويكرهه، كما أنَّ المسلم يصادق جاره اليهودي ويحبه ويعاديه بما خلق الله عليه الإنسان. ومن ثمَّ، فإنَّ العلاقات الاجتماعية بين اليهود والمسلمين لم تكن تتميز بالعداء الصحيح الذي كان يطبع علاقتهم مع المسيحيين والبلدان المسيحية؛ فعلى الرَّغم "من الاضطهادات المحدودة في المكان والزمان، فإنَّ المجموعتين الإسلامية واليهودية كانتا تلتقيان على درب الحياة في مجالات العمل والتعامل، بل أحيانًا تتقاضى أمام نفس القضاة ونفس المحكمين، وكانت أيضًا تلتقي في مجالات أخرى لها ما يميزها كما في بعض المجالات الفكرية، بل تلتقي المجموعتان في مجالات غيرها تحظى بتوفيقية كاملة في قضايا الإيمان والمعتقدات الشعبية، وفي عوالم الفنون الشعبية والخرافة، مخالفين بذلك أهل العلم والمعارف الخاصة التي كانت وقفًا على طبقة معينة، هي أيضًا أقلية، وهي طبقة الأحبار والأعيان الذين كانوا يستحوذون على المعرفة والسلطة والتشريع والتدبير"[6].لقد شارك اليهودي جاره العربي في الإيمان ببعض الاعتقادات كالخوف من العين (عين هاراع)، والتفكير في

الجنون وما إليهم من الوســاوس والأمراض، فكانا معا يعمدان إلى اســتعمال تمائم أو طلسمات يعتقدان أنَّها تبعد عنهما الأذى الذي قد يلحق بهما ومن ذلك:

-*الخمســة: وهي عبارة عن تميمة شــائعة معروفة، حيث تحمل المرأة يدا من ذهب تحتوي على خمسة أصابع، وهي تقصد بها الوقاية من العين الشريرة.

-*التشبير: وهو وسيلة يتبعها اليهودي لإبعاد العين، إذ تأخذ عجوز منديلا وتشرع في التشــبير مع ترديد العبارات التالية:" إله إبراهام، إله إســحاق، إله يعقوب من زيراع يوسف ها صديق ذي عمره ما تعين وعمره ما رأى العين ."

-*اللجوء إلى الأولياء: فالولي وهبه الله قوة تذهب السوء والمرض.

وهكذا نخلص إلى أنَّ البنيات العقلية اليهودية العربية كانت متشــابهة، وتشــترك في العديد من العادات والتقاليد، حيث كان ســكان البلاد من عرب ويهود يلتقون في الاعتقادات المنبثقة من المتخيل الشعبي المحلي، ومن الفلكلور والسحر المحليين. يقول حاييم الزعفراني: "حافظتِ المجتمعات اليهودية- الإسلامية، إلى غاية القرن التاسع عشر، بالنسبة إلى الجزائر وتونس، وإلى حدود القرن العشرين بالنسبة إلى المغرب، على استمرارية حضارية وأسلوب في العيش، وثقافة عرفها أجدادهم منذ نهاية القرن الخامس عشر، بعد أفول العصر الذهبي الأندلسي وانطواء البلد على نفسه. ومرت أربعة قرون دون تحمل أي تغيير يذكر بالنسبة إلى السكان أو إلى المظاهر الثقافية أو إلى المحيط الاجتماعي – الاقتصادي والحياة اليومية. إنها مشاهد ثابتة ووجوه متشابهة على الدوام..."[7].

وإلى جانب ما تقدَّم، برز اليهود في ميادين عديدة؛ حرفية وتجارية وطبية وزراعية، والسبب هو جو التسامح والتعايش الذي عاشوا فيه مع جيرانهم العرب. غير أنَّ السؤال المطروح هو: هل حافظ اليهود على هذه العلاقة أمام التحولات التي شــهدها المجتمع العالمي، وأمام الحركات اليهودية التي نادت بالتحرر والإصــلاح مثل حركة الهاســكالاه، أو التي دعت إلى تجمع يهودي كبير في وطن كبير مثل الحركة الصهيونية؟

أثر التغلغل الاستعماري على العلاقات اليهودية العربية:

أدَّى التدخل الأجنبي إلى خلخلة التعايش وفقدان التوازن في العلاقات اليهودية العربية، ما جرّ شــريحة من اليهود إلى الهجرة في اتجاهات مختلفة؛ فمنهم من هاجر إلى إســرائيل، ومنهم من فضــل الهجرة إلى أوروبا، فيما آثر آخرون الهجرة إلى أمريكا

وكندا. ولعلَّ المتتبع والقارئ للتاريخ سيتساءل عن الأسباب الكامنة وراء الهجرة، ومغادرة البلدان التي عاش فيها اليهود ردحا من الزمن؟ وسيقودنا الجواب إلى ملامسة التأثيرات والتغيرات التي عاشها اليهود حتى يتخذوا هكذا قرار، مثل قرار الهجرة.

أ- حركة الإصلاح اليهودية: الهاسكالاه

برز خلال أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حراك فكريٍّ يدعو إلى تخطِّي كل التقاليد والأعراف والاعتقادات اليهودية قصد تحرير العقل اليهودي من المعتقدات الخرافية والشوائب التي علقت به. وقد ترتب عن هذا ظهور حركة إصلاحية تنويرية تسمى بـ: "الهاسكالاه"[8]، وهي نتيجة طبيعية لتحرر العقل من الخرافة، حيث استطاعت أن تضعَ تعديلاتٍ وإصلاحاتٍ وتغييراتٍ داخل المجتمعات اليهودية، وأكَّدت هذه الحركة أنَّ الديانة اليهودية لم تكن أبدًا جامدةً، بل هي تقليد مُتطوِّر باستمرار[9]. فاليهودية عقيدةٌ دينيةٌ لليهودي، وعليه أن يَتبعهَا في حياته الخاصة، ولكن يجب أن يَندمجَ في الشعب الذي يَعيش فيه، وأن يَأخذَ بعاداته وثقافته. فاليهودي عليه أن يعيش يهوديًّا داخل بيته، وإنسانًا خارج بيته على اعتبار أنَّ اليهودية ليست جنسية وإنَّما هي عقيدة لها طقوسها وشعائرها التي يدين بها اليهودي، وقد كان في ذلك دعوة إلى الإصلاح والتغيير التي شملت التراث اليهودي في جميع مجالاته، حتى يكونَ منفتحًا على العالم التنويري الأوروبي الذي يُمجّد العقلَ، ويعتبره أساس المعرفة والأخلاق بدلاً عن الدين، وفي المقابل الثورة ضد الأعراف والتقاليد الدينية التي رزح اليهود تَحتها مدةً طويلةً جعلتْه في الركب الأخير من التطور والحضارة الإنسانية، فكان على المجتمع اليهودي - الذي يعيش بين أسوار الجيتو[10] في انعزال تام عن العالم - أن يُساير هذا التنوير الذي حَرَّر العقول الأوروبية، وأن يَكسر كل الأغلال والقيود التي تَحبسه عن الانفتاح، وأن يُحطم أسوار الجيتو[11]، وينفتح على العالم.

ب-تمجيد العرق وظهور الصهيونية:

أمام جملة من التحوُّلات التي شهدها المجتمع الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر، تأثرت حركة الإصلاح اليهودية، ولا سيما حين رفض يهود بعض الدول ومنهم يهود روسيا التفاعل مع مبادئ الحركة، وشيوع العنصرية وتمجيد العرق، وقد أدَّى رفض الاندماج إلى ظهور فكر يختلف تمامًا عن الفكر الإصلاحي وهو الفكر

الصـهيوني؛ فبدل الاندماج مع المجتمعات الأخرى، دعا أنصـار الفكر الصـهيوني إلى التجمع في وطن قومي يجمع كل اليهود، وهو دولـة إســرائيل الكبرى، "لـذا كـانـتِ الحركة الصـــهيونية تقدم مَشـــروعها القومي في مواجهة صـــارخة مع حركة التنوير اليهودي (الهسكالاه)، فقد كانت تهدف إلى تجميع (الغيتوات) المنتشرة في العالم، أو ما يُسـمِّى عادة (الديسـابورا)، أو الشَّـتات اليهودي في (غيتو) واحدٍ كبيرٍ يكون فريدًا في نوعه، وهو على حدِّ تسـميتِهم إسـرائيل الكبرى".[12] لذلك، أكد دعاة الفكر الصـهيوني أنَّ الشعب اليهودي شعبٌ مستقلٌ متميزٌ عن بقية العالم، لا يقبل الاندماج والتعايش مع بقية المجتمعات، والذي اختاره الرب واصـطفاه مِن بين سـائر الشعوب ليَحمل رسـالته الداعية إلى السِّـلم والأمان، والتي تتضـمن تحقيق الوعد التوراتي بعد مَجيء الماشـيح المخلص في آخر الزمان ليَرجع إلى أرض الميعاد التوراتي، وبذلك يُمكن له أن يَسُـود ويحكم العالم، ويتخذ من جبل صهيون منطلقًا له، والذي يتأمل هذه الأفكار والمعتقدات يجدُها تنطلق من جانب ديني صرف، ثم بعد ذلك تحوَّل المسارُ شيئًا فشيئًا بسبب التأثر العلماني الذي فَرَض سيطرته بقوته ونفوذِه وشُموليتِه، وتحول المعتقد الديني إلى معتقد قومي إثني يُنادي بالقومية والعرقية العُنصـــرية، وأصـــبحت أهدافُه وأبعادُه واضـــحةً تهدفُ إلى إنهاء حالة المنفى والشـــتات، والعودة إلى أرض الأجداد، وقد ترجمت هذه الأطروحة إلى الشعار العنصري المعروف: "أرض بلا شعب.. لشعب بلا أرض"[13].

وضَّـمت وثيقة الاسـتقلال التي أعلنتها إسـرائيل، تشـجيع تقدم الدولة ورقيها، بما فيه صـالح كل السـكان، وسـيكون أسـاسـها الحرية والعدالة والسـلام، كما سـتدعم النظام الاجتماعي والسـياسـي بالمسـاواة التامة بين كل المواطنين، وسـتضـمن حرية الأديان والعقائد والتعليم والثقافة، وسـتحافظ على الأمن والاسـتقرار في الأماكن المقدسـة لكل الأديان، وســتكون مخلصـــة في تحقيق أهداف ميثاق الأمم المتحدة.[14]وقد فتحت هذه الوعود الباب أمام اليهود للتوجه نحو دولتهم الجديدة، خصوصًا بعدما تمَّ قبول عضوية إســـرائيل في الأمم المتحدة عام 1949. والظاهر وبعد أن دعمت هذه الدولة أركانها، حادت عن الأهداف الحقيقية التي التزمت بها، حيث شـرعت في القضـاء على القومية العربية، وإذابة العنصر العربي في الكيان الإسرائيلي، أو نبذ العرب عن الكيان

الإسرائيلي عن طريق القتل والتهجير الجماعيين، والاستيلاء على الأماكن المقدسة، كما سنت قوانين ضد الأقلية العربية صاحبة الأرض قصد تضييق الخناق عليها ودفعها إلى الهجرة.[15]

وهكذا يمكن القول: إنَّ دولة إسرائيل نهجت سياسة استعمارية عنصرية تستند إلى مبادئ: الأرض عبرية، والعمل عبري، والثقافة عبرية، سعيا لبناء دولة يهودية.

الصراع العربي الإسرائيلي:

إنَّ المشكلة العربية الإسرائيلية ليست، في البداية، مشكلة دينية بين اليهود والمسلمين - خاصة وأنَّ الفلسطينيين العرب ليسوا جميعهم مسلمين ؛ لأنَّ بعضهم ظل مسيحيًا - ولا مشكلة عرقية . إنَّ هذه المشكلة هي مشكلة سياسية لها بالطبع تداعيات دينية، يقول ناحومغولدمان في محاضرة ألقاها بمدينة مونتريال الكندية عام 1948: "لم يخترِ اليهود فلسطين لمعناها التوراتي والديني بالنسبة لهم ، ولا لأنَّ مياه البحر الميت تعطي بفعل التبخر ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن، وليس - أيضًا - لأنَّ مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون الأمريكيتين مجتمعتين، بل لأنَّ فلسطين هي ملتقى طرق أوروبا وآسيا وإفريقيا، ولأنَّ فلسطين تشكل في الواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم، ولأنَّها المركز الاستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم".[16]

ومن جهة أخرى، يتحمل العالم الغربي (الأوروبي أو من أصل أوروبي) والمسيحي يتحملان مسؤولية تاريخية كبرى في نشأة هذا الصراع العربي الإسرائيلي واستمراره؛ وذلك راجع إلى أسباب منها:

- **أولاً** : العداء الأوروبي لليهود لعدة قرون.

ـ **ثانيا** : تعويض اليهود ، بعد الهولوكوست، بثمن بخس من خلال السماح لهم بمطاردة الفلسطينيين وتهجيرهم من أراضيهم ومنازلهم.

وهكذا أصبحت فلسطين منطلقا للصراعات المتكررة التي انتشرت في المنطقة وخارجها، وهي صراعات دموية وإن بطريقة غير متكافئة للغاية بسبب الدعم المالي والعسكري الهائل لدولة إسرائيل منذ تأسيسها، وخاصة من الدول الغربية، ولا سيما من فرنسا ومن ثم من الولايات المتحدة بشكلٍ أساسيٍّ. فلو لم تحظَ إسرائيل بدعم أكثر من الفلسطينيين، لكان وجه الشرق الأوسط قد تغير. وفي ضوء هذا تأسست دولة

يهودية تقوم في مبدئها على الإثنية ، حتى وإن كان بعض الإسرائيليين يدركون معاناة الفلسطينيين ومأساتهم، ويحتجون على سياسات قادتهم، فإنَّ أصواتهم لا تسمع.

لقد انطلقتِ المشكلة في البداية كمشكلة إسرائيلية فلسطينية، وهي مشكلة لم تظهر كالبرق في سماء صافية، وإنَّما هي مشكلة كانت لها جذور عميقة وبعيدة ، ففلسطين تتمتع بوضع استثنائي يُشكل مفترق طرق لحركة المرور البرية والبحرية بين ثلاث قارات: إفريقيا وآسيا وأوروبا. لذلك، تتمتع فلسطين بتاريخ حافل. دون الرجوع إلى عصور ما قبل التاريخ؛ حيث اشتبكت الإمبراطوريتان المصرية والآسيوية هناك، وكانتِ المنطقة على وجه الخصوص، من الألفية الثالثة حتى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مكانًا لحضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارتين الكنعانية والفينيقية. كما شهدت مواجهات مختلفة مع سكان من المنطقة المحيطة أو من مناطق أبعد. ووفقًا للكتاب المقدس، فقد كانت قبائل العبرانيين مستقرة في فلسطين بعد أن قاتلوا وطردوا المحتلين السابقين بحجة أنَّ هذه كانت إرادة إلههم، وهي ذريعة لا ينبغي أن يقبلها المجتمع اليوم، وإن كان البعض حتى اليوم، يدعي أنَّها تحظى بدعم الله. لسوء الحظ، لا يوجد سوى مصدر واحد مهم للمعلومات حول هذه الأحداث، فقد برَّر العبرانيون وفق العهد القديم (خاصة أسفار موسى الخمسة أو التوراة) ولا يزالون يبررون أنَّ إلههم يهوه، كان سيعطيهم الإسناد الحصري في ذلك الوقت، كتعهد بالولاء، ويعتبرون أنفسهم الآن شعب الله المختار. ومنذ ذلك الحين يُطلق عليهم اسم الإسرائيليين وفيما بعد يهودًا – أيضًا- .[17]

وممَّا لا شك فيه، أنَّ مثل هذه الادعاءات غالبًا ما تكشف عن نواة من الحقيقة، وإحدى علامات العداء القديم والمستمر للإسرائيليين تجاه الشعوب التي اتخذوا مكانهم في فلسطين وتجاه أولئك الذين بقوا في الجوار، ومن ذلك ما جاء في بعض مروياتهم أن يسوع أثناء سفره في فينيقيا، رفض بكلمات مهينة، امرأة أتت لتطلب منه أن يشفي ابنتها، لأنَّها كنعانية أو يونانية أو سيرو فينيقية، حسب الرواية؛ لأنَّها ليست يهودية، فيجيب أنَّه جاء من أجل بني إسرائيل فقط وليس من أجل الكلاب الصغيرة.

ومن الواضح أنَّ أوروبا لعبت دورًا رئيسًا في المشكلة موضوع البحث؛ ذلك لأنَّ الأمر لا يتعلق بالبناء السياسي الجاري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بل يتعلق بالقارة التي تمتد جغرافيًا وتاريخيًا؛ أي "من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال" ومن الشواطئ الشمالية للبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود إلى الدول الإسكندنافية

وروسيا. فقد تم بناء الحضارة الأوروبية على أسس جغرافية وثقافية. وفي الغالب، نشأت الثقافة الأوروبية عن طريق العلوم والفلسفة اليونانية (التي نقلها العرب جزئيًا)، ثم من خلال المنظمات المدنية والعسكرية الرومانية، وأخيراً عن طريق الدين والأخلاق المسيحية، سواء أكان المرء مؤمنًا أم لا، ولا يمكن لأحد أن ينكر أنَّ المسيحية هي التي خدمت كإطار أيديولوجي لتشكيل الدول أو الدول الأوروبية (وبالتالي ما يسمى بالدول "الغربية" الأخرى)[18].

وكثيرًا ما يتم الآن استخدام المصطلح "Judeo-Christian"؛ وذلك لوصف الحضارة الأوروبية أو الغربية ، وهو استخدام يشوبه بعض التشويش والتمويه؛ لأنَّ أوروبا كانت معادية للسامية على مر التاريخ، وقد ساعدت معاداة السامية على تطوير نظريات عنصرية، وخاصة العواقب الوخيمة التي تعرض لها في ظل النظام النازي بألمانيا، علما أنه في إسبانيا الأندلسية التي عاش فيها العرب المسلمون وسكنوها لسبعة قرون، كان اليهود يعاملون بشكل عام من قبل الملوك المسلمين بشكل أفضل من الملوك الكاثوليك. وقد حمل اليهود معهم عقدة شكَّلت جذورا أدَّت إلى ظهور الحركة الصهيونية، رغم أنَّ اليهود لم يكن جلهم مؤيدًا للصهيونية، خاصة وأنَّ اليهودية كعقيدة لا ترتبط بمكان معين بل ترتبط بالكتاب والتقاليد.

لما وقع الاختيار على فلسطين، كان عدد العرب لا شك أكبر من عدد اليهود، وقد أحسوا بقلق بشأن الموجات الجديدة من المهاجرين الذين يحملون معهم نوايا تدخلية؛ وقد جاء الاستيطان الجديد في فلسطين منذ نهاية القرن التاسع عشر بناء على أحداث يمكن حصرها في حدثين تاريخيين هما:

- سعى البريطانيون خلال الحرب العالمية الأولى، إلى وضع الأشواك في قدم الإمبراطورية العثمانية؛ فمن ناحية، أسسوا ونشروا عام 1917 وعد بلفور، للإعلان على إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين.

- من ناحية أخرى، أيد البريطانيون تمرد العرب ضد الوصاية العثمانية.

ولعل الموقف الخلافي الذي نتـــج لاحقًا بين العرب واليهود فاق توقعاتهم بلا شك، مع أنَّهم اتخذوا الحيطة ، حفاظًا على مظهر التوازن، ليحدّدوا في الإعلان أنَّه " لن يتم عمل شيء من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية "، وازدادت الرغبة في الحصول على وطن قومي لليهود، خصوصا وأنَّ الفلسطينيين لم يحظوا بالدعم الغربي، وعلى الرغم من أنَّ اليهود الوافدين الجدد أو العائدين كانت لهم فرصة قبول من قبل جيرانهم،

إذا ما أعلنوا منذ البداية رغبتهم في الاندماج بسلام في الشرق الأوسط ، دون روح الغزو أو الاستيلاء على اعتبار أنَّ العرب واليهود هم جزء عرقيًا ولغويًا من المجموعة السامية؛ إلَّا أنَّ الحياد عن أهداف السلام والتعايش، أدَّى إلى شرارة جعلت الفلسطينيين يسأمون من تجاهل المصير الذي فرض عليهم. وبالتالي احتج الفلسطينيون على الوضع الذي آلـــوا إليه، "فلما شكلت الجهود العربية (جمعية إسلامية مسيحية) لتكون ندا للبعثة الصهيونية طلب الميسيو أوسيشكين- رئيس البعثة الروسي الأصل- من الحاكم الإداري العام أن يرفض إعطاء الجمعية الإسلامية المسيحية وغيرها من الجمعيات العربية حق الاجتماع وحق التعبير".[19]

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الاختباء وراء الأخطاء التي لا يريد الغربيون الاعتراف بها، فبدون اعتراف وبدون عدالة لا يمكن إحلال السلام الحقيقي، لذلك وجب على القادة الغربيين التحلِّي بالشجاعة لمواجهة الحقائق والأخطاء التي شاركوا فيها هم وأسلافهم.

الخاتمـــــــــــــة :

وممَّا يجب التنويه إليه في الختام ، هـــو:

1- أنَّ الفلسطينيين ليسوا مسؤولين عن معاداة السامية الكامنة في أوروبا المسيحية خلال تاريخها، ولا عن الإبادة الجماعية لليهود التي ارتكبها الألمان ونظامهم النازي في أوروبا.

2- إذا كان من الضروري، بعد الحرب العالمية الثانية ، إنشاء وطن قومي لجميع يهود العالم، فإنَّ ذلك لا ينبغي أن يكون على حساب الفلسطينيين العرب.

3- إنَّ غزو قبائل العبرانيين لأراضي فلسطين واحتلالها حتى بداية عصرنا، لا يمنح حقوقًا حالية لأحفادهم في نهاية المطاف أكثر من غزو الرومان والعديد من الأراضي الأخرى، لن يعطي حقوقًا للإيطاليين الحاليين.

4- التثبيت التدريجي لعدد قليل من المستوطنات اليهودية الجديدة في فلسطين، منذ نهاية القرن التاسع عشر، لم يمنحهم المزيد من الحقوق على بقية البلاد والسكان الآخرين، خاصة وأنَّ هناك المزيد من اليهود الراسخين في أماكن أخرى كأمريكا على سبيل المثال.

5- أما بالنسبة إلى الجدل الدينـــي الذي تقوم عليه الصهيونية في فلسطين ، والذي لا يزال يلوّح به المستوطنون ، وهو أنَّ ربهم كان سينسب لهم هذه الدولة، فلا يمكن للمجتمع الدولي أن يعترف به بأي حال من الأحوال.

وتجدر الإشارة في ضوء ما تقدم، أنَّ دراسة قام بها تمار هيرمان بعنوان: شراكة محدودة الضمان يهود وعرب[20]، والصادرة عن المعهد الإسرائيلي للديمقراطية، خلص فيها صاحبها إلى نتائج سطرها كالآتي :

- العلاقات بين اليهود والعرب في إسرائيل مركبة جدًّا ، وتدور رحاها على ثلاثة مستويات ، لا يلامس كل منها الآخر بالضرورة ، وهي: مستوى الدولة، والمستوى الاجتماعي ، ومستوى العلاقات بين الناس.
- الهويتان الأساسيتان في صفوف اليهود هما الهوية الإسرائيلية والهوية اليهودية، حيث تزيد نسبة الذين يعرفون أنفسهم في هذه الفترة بأنهم إسرائيليون في الأساس 38°/° عن نسبة الذين يعرفون أنفسهم بأنهم يهود في الأساس 29°/°.
- الهويتان الأساسيتان في صفوف العرب هما الهوية العربية 39/°، والهوية الدينية الإسلامية والمسيحية أو الدرزية 34/°، وقلة منهم تتبنى الهوية الفلسطينية هوية مركزية 14/°، ونسبة أقل من ذلك ترى في الهوية الإسرائيلية هويتها المركزية 10/°.
- الهوية الفلسطينية بوصفها هوية أساسية تنتشر أكثر في صفوف المسلمين، والشبان والمثقفين ولدى الأشخاص الذين لهم أقرباء في الأراضي الفلسطينية.
- تعتقد أغلبية اليهود 63/° أنَّ العرب لا يشعرون أنَّهم يشكلون جزءا من المجتمع الإسرائيلي، وعلى المنوال ذاته يعتقد العرب 69/° أنَّ اليهود لا يعتبرون العرب جزءا من المجتمع الإسرائيلي.
- أجاب معظم المستطلعين العرب67/° بعدم توافر الحق لإسرائيل بأنَّ تعرف نفسها دولة للشعب اليهودي.

الهوامـــــــــــــــش:

1- كتابات حاييم الزعفراني نموذجا، انظر كتاب د. عبد السلام شرماط، يهود المغرب في كتابات حاييم الزعفراني، دار مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع- لبنان 2021
2 - كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام – القاهرة، د.ت، ص27
3- المرجع نفسه، ص 35
4 –Chouraqui André, Histoire des juifsenAfrique du nord, nouvelle edition,1987
5- حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ج2 ص 508
6- المرجع نفسه، ج1، ص42
7- حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ص 287
8- كان من مؤسسيها موسى مندلسون: فيلسوف يهودي ألماني عاش ما بين 1729م - 1786م.
9- عبدالقادر عقاب، الهسكالاه: حركة اليهود الإصلاحية وتحولاتها الصهيونية، الألوكة الثقافية، على الرابط:
10- الغيتو هو الحي الذي عاش فيه اليهود في أوروبا، ويعادله الملاح في المغرب، والحارة في المشرق العربيين.
11- عبد القادر عقاب، المرجع نفسه، والرابط نفسه.
12- أمل فؤاد عبيد، الحوار المتمدن - المحور: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، العدد: 1760 - 2006 / 12 / 10 - 07:16
13- عبد القادر عقاب، المرجع نفسه، والرابط نفسه.
14- كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام – القاهرة، د.ت، ص54
15- المرجع نفسه، 55
16- انظر كامل سعفان، المرجع نفسه، ص65
17-Jérôme Chastenet de Géry.Dans Les Cahiers de l'Orient 2011/1 (N° 101), pages 99 à 116 .Cairn.info 2016/11/01
https://doi.org/10.3917/lcdlo.101.0099
https://www.cairn.info/revue-les-cahiers-de-l-orient-2011-1-page-99.htm
18 المرجع نفسه، على الرابط نفسه.
19- كامل سعفان، المرجع نفسه، ص94
20-تيمار هيرمان/حنانكوهين/فاديعامر/ إيلاهيلر/ تسيبيلزار- شوئيف؛ شراكة محدودة الضماني هودو عرب، إسرائيل 2017، المعهد الإسرائيلي للديمقراطية، ترجمها إلى العربية: جلال حسن، ص ص 10-9